عبقرية محمد[1]

عندما اقترح على أن أتحدث إلى حضراتكم فى موضوع من موضوعات الأدب والثقافة . رحبت بالاقتراح وحمدت المقترح لأننى أحببت أن أتحدث إليكم من أم درمان كما تحدثت إليكم قبل الآن من القاهرة وبيت المقدس . وكلها فى مسامع للعربية متقاربة وإن تباعدت الديار .

وتساءلت فيم يكون الحديث ؟

فوجدت اتفاقا يشبه الإجماع على أن يكون فى « عبقرية محمد » .. وكان من المتفقين على ذلك أناس قرءوا الكتاب وأناس لم يقرءوه ، فحمدت هذا الاتفاق كذلك . لأن « عبقرية محمد » موضوع خالد جديد : خالد من ناحية صاحب العبقرية ، وجديد من ناحية الكتاب الذى ألف فيه .. وليس أيسر من الكلام فى موضوع خالد جديد .

سألنى كثيرون : لم اخترت الكتابة فى عبقرية محمد ؟

وجوابى عن هذا السؤال : إننى سئلت قبل ثلاثين سنة : لم لا تكتب كتابًا عن محمد ؟

---

(١) ألقيت من محطة الإذاعة بأم درمان سنة ١٩٤٢ .

وعندى أن السؤال الأول قبل ثلاثين سنة كان أحق بالتوجيه من السؤال الأخير فى هذه الأيام .

فمازلت مولعًا بالسير والتراجم أكتبها وأقرؤها وأقرأ عنها . ومازال فى ودى أن أكتب عن النبى العربى كتابة إنسانية على النمط الذى تعرف به العظمة فى كل مكان وفى كل لسان .

وقد وضعت كتابى فى سيرة الشاعر الشرقى ابن الرومى والشاعر الغربى جيتى والزعيم المصرى سعد زغلول . ووضعت فصولاً كثيرة فى سير المعرى والمتنبى ودعبل وبشار وتوماس هاردى ومصطفى كمال وغاندى وغيرهم وغيرهم من كل طراز ومن كل طبقة ومن كل عصر .

فإذا وضعت كتابًا عن النبى العربى فما فى ذلك من عجب . بل العجب ألا أضعه قبل الآن . وهذا عجب حق يجب أن يجيش فى نفس كل قارئ . ولكن العجب كما يقال يبطله عرفان السبب .. والسبب أن محمدًا أعظم من كتبت عنهم من العظماء .. فالتهيب لموضوعه أعظم ، والتردد فيه أولى ، والاستعداد له أحرى أن يطول .. وقد طال ولله الحمد على ذلك .

فى مقدمتى لهذا الكتاب – كتاب عبقرية محمد – رويت قصة جرت فى ضاحية العباسية بالقاهرة قبل ثلاثين سنة فقلت :

« فى يوم من أيام المولد – والرهط يزورنى ليؤم ساحة المولد فى المساء – كان الكاتب الأيقوسى العظم توماس كارليل هو

محور الحديث كله ، لأنه كما يعلم الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب الأبطال الذى عقد فيه فصلاً عن النبى عليه الصلاة والسلام ، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل » .

« وإنا لنذكر آراءه ومواضع ثنائه على النبى إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية ، وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متحذلقاً يتظاهر بالمعرفة ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة .. فكان مما قاله شىء عن الزواج .. وشىء عن البطولة فحواه أن بطولة محمد إنما هى بطولة سيف ودماء .

« قلت ويحك ! ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية !

« وقال صديقنا المازنى : بل السيف أكرم من هذا . إنما سوغ صاحبنا شيئاً آخر يستحقه ، وأشار إلى قدمه .

« وارتفعت لهجة النقاش هنيهة ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى ، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول أو خيل إليه أنه مقبول .

« وتساءلنا : ما بالنا نقنع بتمجيد كارليل للنبى وهو كاتب

غربى لا يفهمه كما نفهمه ولا يعرف الإسلام كما نعرفه ، ثم سألنى بعض الإخوان : ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابًا عن محمد على النمط الحديث ؟

« قلت : أفعل ، وأرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب » .

ولكنه لم يتم فى قريب .. بل تم بعد ثلاثين سنة ..

والخيرة فى الواقع .

والخيرة كذلك فى هذا التأخير !

فإننى لو كتبته يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد ، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية إلى محصول ذلك العمر الباكر . إذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلئ فيه إعجابًا بمحمد لأنه عمر الإعجاب والحماسة الروحية ، بيد أنه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه وأن يشعر بشعوره فى مثل تجاربه وفى مثل السن التى اضطلع فيها بالرسالة ، وإن تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه .. »

ذلك هو تاريخ الفكرة التى نجمت قبل ثلاثين سنة ولم تزل تتردد فى الذهن خلال هذه السنين الثلاثين .

ثم أنشئت مجلة « الرسالة » التى تعرفونها وتقرءونها ودعيت إلى الكتابة فيها .

وكان من سننها الحسنة التى ماتزال تتبعها أن تخرج لقرائها

عددًا خاصًّا بالدعوة المحمدية فى كل ذكرى من ذكريات الهجرة أو المولد النبوى . فجعلت أكتب لهذه الأعداد فصولاً متفرقة فيها نواة كتاب عن محمد عليه الصلاة والسلام . ثم عوفيت من بعض الشواغل السياسية والشخصية التى كانت تعوقنى عن المضى فى تأليف كتاب كامل ، فما هو إلا أن فرغت للتأليف حتى تم وضع الكتاب فى شهر أو قرابة ذلك .. لأننى كنت أكتبه وكأننى أنقله من الذاكرة لطول التفكير فيه والتهيؤ له والرجعة فى الفينة بعد الفينة إليه .

على أننى فى الحق لم أستغرب أن يسألنى بعض القراء لم اخترت التأليف فى محمد عليه السلام ؟

لأننى فهمت الباعث الذى دعاهم إلى هذا السؤال . فقد ظهرت فى السنوات الأخيرة كتب متعددة عن النبى العربى لأناس من أعلام الكتابة العربية ، فمن الطبيعى حين يزيد على هذه الكتب كتاب جديد أن يخطر على بال بعض القراء سؤال كالذى سألوه ، وأن يتطلعوا إلى استكناه الدواعى التى ميزت السنوات الأخيرة بهذا النوع من التأليف ، ووكلت أقلام الكتاب بهذا الموضوع .

قلت إنه طبيعى أن يخطر ذلك الخاطر على بال بعض القراء .

ولكنى أعود فأقول إنه طبيعى على اعتبار واحد ، وهو أن أولئك القراء نظروا إلى السنوات الأخيرة ولم ينظروا إلى تاريخ

التأليف فى السيرة النبوية والشئون العربية الإسلامية منذ زمن طويل .

نظروا إلى السنوات الأخيرة فتمثلت لهم كأنها ظاهرة منقطعة قليلة النظائر والسوابق .

وكل شيء منقطع قليل النظائر غريب ، وكل غريب يدعو إلى التساؤل والاستفسار .

إنما يزول العجب من أمر من الأمور فى نظر الإنسان إذا رأى له أشباها كثيرة .

وأشباه هذه الظاهرة كثيرة جدا لمن يرجع إليها ، وعندئذ يقف على السبب الأصيل فلا تعنيه الأسباب العارضة إلا عرضًا من قبيل التشوف والاستقصاء .

فكل حركة من الحركات القومية فى العالم الإسلامى كانت مصحوبة باهتمام جديد بناحية من نواحى الدعوة المحمدية على اختلاف مظاهرها وشعابها .

ففى بعض هذه الحركات طبعت كتب السير القديمة التى كانت مخطوطة وظلت كذلك إلى أيام الطبع والنشر على النحو الحديث .

وفى بعضها كتب عن معانى القرآن وأصول اللغة وتاريخ التمدن الإسلامى ومذاهب الأئمة .

وكان معظم ما ظهر فى هذا وذاك فى إبان الحركة العرابية

والحركات التى صاحبتها فى البلاد الشرقية .

ثم كتب أناس مثل رفيق بك العظم ومصطفى بك نجيب وغيرهما فى أعلام الإسلام .

ثم جاءت الحرب الماضية فنشأ فى الأدب المصرى نمط جديد من الاهتمام بسير الأئمة والعظماء ، فنظم حافظ قصيدته العمرية ، ونظم عبد المطلب قصيدته العلوية ، وألف الأساتذة من أمثال الخضرى والنجار كتبًا فى سيرة النبى وسير الخلفاء الراشدين .

ثم أسفرت الحرب الماضية عن عالم عربى حديث ، وموضوعات شاملة للعالم العربى يطرقها الكتاب المقروءون فى أنحاء البلاد العربية .

وهكذا اتصلت الحلقات التى تختلف بعض الاختلاف بين حركة وحركة ، ولكنها تتلاقى جميعًا فى معنى واحد وهو معنى الاهتمام والشعور بالحياة على نحو جديد .

ويتفق كثيرًا أن تتأثر هذه الحركات بحركات الثقافة الأوربية التى تعاصر هذا الاهتمام وتلفت أنظار المؤلفين إليها .

مثل ذلك أن الاهتمام بالشئون الإسلامية ، فى ظاهرته الأخيرة أقرب إلى التراجم والسير منه إلى كل أسلوب آخر من أساليب التأليف .

لم كان هذا !

أعتقد أن السبب راجع إلى تدفق التراجم والسير فى اللغات الأوربية بعد الحرب الماضية . وأن هذه النزعة شغلت الكتاب المحدثين حتى عادوا بها إلى الأزمنة القديمة وأبطالها ولم يقصروها على أبطال هذه الأيام ولا على أبطال الحروب حاضرها وماضيها .

وربما كان هناك سبب آخر للاستغراب والسؤال يحسن أن نشير إليه وأن نقول كلمة فيه : ذلك أن الكتاب الذين شغلوا بالسيرة النبوية فى العهد الأخير كانوا جميعًا أو كان معظمهم من غير رجال الدين .. !

فهل فى الأمر غرابة !

أما نحن فلا نرى وجهًا للغرابة فيه .

فلو أننا عقدنا المقارنة بين ظاهرة الاهتمام فى عصرنا وظواهر الاهتمام فى العصور القريبة لرأينا الملاحظة التى يلاحظونها متكررة فى جميع العصور .

فقد وجد أناس من غير رجال الدين كتبوا فى تواريخ الإسلام وأصول اللغة . بل وجد أناس مسيحيون أو من أصول غير إسلامية كتبوا وأكثروا الكتابة فى هذه الموضوعات ، ومنهم ولا نحصيهم اليازجى وزيدان والشدياق والمستشرقون بين الغربيين .

أفى هذا غرابة أيضًا ؟

كلا . لا غرابة فيه . لأن الأمر الطبيعى فى موضوعات الكتابة التى تتفتح بين حين وحين أن تلفت إليها المشغولين بالكتابة سواء كانوا من رجال الدين أو من غير رجاله ، وقلما كان رجل من فقهاء الدين كاتبًا فى هذه الشئون إلا وهو قبل ذلك أديب أو مشغول باللغة وما إليها .

عندما يتجدد موضوع للكتابة فإنما يكون البحث عنه بين الكتاب المقروئين فى البلاد العربية والبيئات التى تشابهها وليس من اللازم أبدا أن يكون الكتاب جميعًا فقهاء فى الدين .

* * *

نحن إذن أمام ظاهرة متكررة لها أسبابها الدائمة من وراء الأشخاص والأزمنة .

وقد تمتزج هذه الظاهرة برغبة المجاملة لأسباب سياسية أو أسباب شخصية أو ماشاءت المناسبات العارضة .

إلا أن الظاهرة الباقية المتكررة أعم من كل أولئك وأولى بالبحث والسؤال .

فإذا كثرت المدارس والمستشفيات أو مزارع القطن فى بعض الأعوام مثلاً ، فليس المهم أن نعرف أن هذه المدرسة أنشئت لإرضاء ولاة الأمور أو آباء التلاميذ وليس المهم أن نعرف أن هذا المستشفى مقصود به شفاء المرضى وابتغاء السمعة الحسنة ، وإنما المهم إذا اشتد الاهتمام بالمدارس والمستشفيات أن الحاجة إليها

اشتدت حتى امتزجت بها صنوف من تلك المجاملات ، وهذا هو السبب الأصيل الذى تنطوى فيه جميع الأسباب .

* * *

حضرات السادة والسيدات :

حدثتكم فى حديث الليلة عن تاريخ الفكرة التى دعتنى إلى تأليف كتابى عن « عبقرية محمد » وعن تعليل البواعث التى تصاحب التأليف فى هذا الموضوع وأشباهه وخلاصة الحديث كله أن « عظمة محمد » موضوع خالد يتكرر الاهتمام به كلما عرف الناس كيف يهتمون ، وكيف يعربون عن اهتمامهم على نحو من الأنحاء ، ولكل شىء أوانه الذى لا يختاره الكاتب وحده . بل تختاره معه الحوادث والأقدار .